

## بدايات الدكتور أبي القاسم سعد الله في عالم الصحافة

الأستاذ الدكتور مولود عويمر

قسم التاريخ - جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

كانت الصحافة بالنسبة إلى الدكتور أبي القاسم سعد الله "طريقا للشهرة الأدبية وتبليغ الأفكار". كيف كانت التجارب الأولى للطالب بلقاسم سعد الله<sup>(1)</sup> في الكتابة في الصحافة؟ ما هي أهم الجرائد والمجلات الجزائرية والعربية التي ساهم فيها في فترة التحصيل العلمي في تونس ومصر؟ ما هي مكانة الصحافة في تراث الدكتور سعد الله؟

### بدايات صحفية في جريدة البصائر:

بدأت تجربة سعد الله الصحفية في تونس، التي سافر إليها في عام 1947 للدراسة في جامع الزيتونة، فحصل على شهادة الأهلية في سنة 1951م، وشهادة التحصيل في عام 1954م<sup>(2)</sup>. في هذه الفترة أرسل الطالب الزيتوني محاولاته الأولى إلى الجرائد التونسية كالتنبيه والزهرة والأسبوع ومجلة المعارف، لكنها نادرا ما تنشرها هذه الجرائد. لذلك أعتبر أن تجربته الفعلية في الكتابة الصحفية كانت مع جريدة البصائر، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

بدأت علاقة سعد الله بجريدة البصائر مبكرا، فكان يقرأها في بلدته قمار وهو شاب لم يبلغ سبعة عشر عاما، يجد أعدادها المتسلسلة عند خاله الشيخ حفاوي هالي وهو من أحد أبرز أقلام هذه الجريدة، وكذلك في مكتبة زوج خالته، الشيخ الطاهر التليلي، وهو أيضا عضو بارز في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين<sup>(3)</sup>.

وكان خلال هذه السنوات التونسية على اتصال دائم بالجريدة التي تبعتته إلى تونس بفضل اشتراكه فيها بواسطة والده<sup>(4)</sup>. وليس غريبا أن ينشر محاولاته الأولى الجادة في هذه الصحيفة الإصلاحية. وهكذا، كتب مقاله الأول في العدد 165 الصادر في 30 جويلية 1951م عنوانه: "أمة المجد في الميدان"<sup>(5)</sup>. وواصل الكتابة في هذه الجريدة بعد أن لقي التشجيع من طرف أصدقائه وأساتذته. وتبرز المقالة الأولى والثانية<sup>(6)</sup> اندفاع الطالب نحو الكتابة ونقد الواقع والإقدام نحو المجد بدون تردد.

ولعل شخصيته القوية، الطموحة والجريئة هي التي نبّهت إليه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء ومدير جريدة البصائر، فعينه مراسلا للجريدة، وتتضمن هذه المهمة كتابة تقارير إعلامية حول نشاطات البعثة الزيتونية التي تشرف عليها هذه الجمعية الإصلاحية الجزائرية وإرسالها إلى جريدتها المعروفة. وقد رحب الطالب سعد الله بذلك كأول خطوة في طريق الشهرة الواعرة، فكتب عن نشاطاتها المتعددة<sup>(7)</sup>.

ولما انتقل سعد الله إلى مصر لمواصلة دراساته العليا في عام 1955م، اتفق من جديد مع الأستاذ أحمد توفيق المدني مسؤول جريدة البصائر آنذاك خلفا للشيخ الإبراهيمي المقيم في المشرق العربي، لمراسلة الجريدة بمقالاته، وكذلك بمتابعاته للنشاطات الثقافية في القاهرة<sup>(8)</sup>.

وهكذا استمر في الكتابة في هذه الجريدة التي خصصت له بابا عنوانه: "رسالة القاهرة" يطعمه كل مرة بأهم الأحداث الثقافية الحاصلة في العاصمة المصرية في الآداب والمسرح والفنون والإصدارات الجديدة، وتغطية نشاطات الشيخ الإبراهيمي في هذا البلد العربي، وكذلك تلخيص ما يقال عن الجزائر في الصحافة المشرقية<sup>(9)</sup>. وقد عازمت الجريدة في بداية عام 1956م على إعطائه مقابل هذا الجهد 5 جنيهات في الشهر<sup>(10)</sup>. لكن توقفها بعد شهرين، حرم الطالب سعد الله من مبلغ مالي كان في أمس الحاجة إليه.

وكان يحضر بنفسه إلى المهرجانات الثقافية والمجالس العلمية القائمة في الجامعات والجمعيات، لينقل بأمانة للقارئ وقائعها. ولهذا السبب دخل أول مرة إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة<sup>(11)</sup> ليغطي أشغاله، ثم يرسل التغطية إلى جريدة البصائر. وأحيانا ينشر مواضيع بعيدة عن اهتمامات الجريدة وغريبة عن اتجاهها العام مثال على ذلك حديثه عن سهرة غنائية لأم كلثوم<sup>(12)</sup>.

وكان ينشر ما جادت به قريحته من خواطر في الأدب والقصص كقصة سعة خضراء<sup>(13)</sup> التي استوحاها من حياته الشخصية في قمار. ونزلت في الجريدة متسلسلة في ثلاث حلقات.

كما نشر عدة قصائد بتشجيع أصدقائه الجزائريين والتونسيين المنضوين في جمعية رابطة القلم الجديد<sup>(14)</sup>. وكانت من أشهر قصائده: أطيفاف، احتراق، وخاصة طريقي<sup>(15)</sup> التي نشرتها البصائر مرفقة لأول مرة بصورته الفوتوغرافية.

وكان يلجأ إلى حيلة طريفة لتقبل مقالاته وقصائده وقصصه خاصة التي تناولت قضايا شائكة، أو الدراسات الطويلة، فكان يهديها إلى أعضاء هيئة التحرير<sup>(16)</sup> مثل أحمد توفيق المدني وأحمد سحنون<sup>(17)</sup>... الخ،

كما كان يساهم في المناظرات الأدبية والفكرية<sup>(18)</sup> مع الأدباء والمثقفين الجزائريين المعروفين آنذاك أمثال: أحمد رضا حوحو<sup>(19)</sup>، عبد الوهاب بن منصور<sup>(20)</sup>، رابح بونار<sup>(21)</sup>... وأحيانا يثير سعد الله إشكالية أدبية أو علمية فيرد عليه كاتب، كما فعل الشيخ عمر شكيري الذي انتقد سعد الله على حديثه عن الوجودية، فهي تمثل في نظر شكيري إلحاد وانحلال ولا مجال لها في جريدة إصلاحية مثل البصائر.

ومن الطرافة أن أذكر هنا أن سعد الله كان إذا لم يتفاعل كاتب مع ما طرحه من إشكاليات، رد على نفسه باستعمال اسم مستعار: إبراهيم حمداني<sup>(22)</sup>.

### إسهاماته الأولى في الجرائد والمجلات العربية:

بعد هذه التجربة الناجحة في جريدة البصائر، تشجع الطالب بلقاسم على الكتابة في جرائد تونسسية كالأسبوع، ومجلات معروفة في الساحة الفكرية والثقافية آنذاك كمجلة المعارف التونسية، ومجلة العالم العربي المصرية، ومجلة الرسالة العراقية، ومجلة الآداب اللبنانية.

وقد وقع المقال الأول الذي نشره في هذه المجلة الأخيرة في ربيع 1954م في قلبه موضع اعتزاز، فقال: "كان لنشر ذلك المقال في مجلة مشرقية راقية كالآداب أثر كبير في نفسي"<sup>(23)</sup>.

كان الطالب سعد الله مولعا بقراءة الصحف، ومتعلقا بها، ومن يقرأ يومياته: "مسار قلم" خاصة في فترة الخمسينات، يلمس ذلك بكل سهولة، فكانت على سبيل المثال جريدة "الجمهورية" تكاد لا تفارقه يوميا خلال إقامته بالقاهرة، حتى عجز هو نفسه في تفسير تعلقه بهذه الجريدة الحكومية المصرية<sup>(24)</sup>.

لقد حفزه عشقه للجرائد على دراسة الصحافة عن طريق الانتساب الحر إلى مؤسسة الصحافة المصرية، وتحصل منها على دبلوم في الإعلام في عام 1957م. وسمحت له خبرته وشهادته بالعمل في مجلة "العالم العربي" كمحرر لباب "المغرب العربي في المرأة"<sup>(25)</sup> لعدة شهور.

ورغم أنه لم يتحصل من وراء هذا العمل على مورد مالي، فإنه كسب خبرة واسعة في مجال صناعة المجلة، وتعلم أساليب جديدة في الكتابة الصحفية، واحتك بالصحافيين والكتاب المعروفين في الساحة الثقافية المصرية والعربية آنذاك.

### الصحافة في تراث الدكتور سعد الله:

لقد ساهم الدكتور سعد الله في الصحافة الجزائرية بدراسات تاريخية وأدبية، وآراء في قضايا ثقافية واجتماعية وسياسية من خلال مقالات وحوارات مع الإعلاميين الجزائريين أو

الأجانب من الدول العربية<sup>(26)</sup>. لكنه كان يحتاط من الصحفيين، فلا يقبل إلا الأسئلة المكتوبة ليجيب عنها براحة.

قال سعد الله في هذا السياق: "منذ الثمانينات تقريبا أخذت لا أجيب السائلين غالبا إلا بأجوبة مكتوبة على أسئلة مكتوبة. ومن ثمّ تمكنت أولا من السيطرة على أفكاره وتشيت ألفاظه وتعبيري، وثانيا من الاحتفاظ بنسخ مكتوبة من الحديث المقصود"<sup>(27)</sup>.

وقد أضاف في موضع آخر اعتبارات أخرى، منها تفادي التأويلات الخاطئة، وعدم التأثير المباشر بالصحافة في المحاور من جوانب مختلفة<sup>(28)</sup>.

كما استعان بكم هائل من الصحف في بحوثه وكتبه، وخصص دراسات عديدة لمجلات معروفة استخرج منها كنوزا ثمينة من المعلومات عن تاريخ الجزائر والعالم العربي، منها: مجلة المنار<sup>(29)</sup> للشيخ محمد رشيد رضا، مجلة الآداب<sup>(30)</sup> للأديب سهيل إدريس، ومجلة العالم الإسلامي<sup>(31)</sup> الفرنسية.

بعد هذا العرض، يحق للقارئ أن يتساءل هنا: ما هو رأي الدكتور سعد الله في الصحافة الجزائرية بعد أن تعامل معها أكثر من نصف قرن؟ سجل الدكتور سعد الله تراجع الصحافة في اهتمامها بالثقافة والفكر وابتعادها عن الحرفية في النشر، فلم يعد همها إنارة القارئ، ولم تعد رسالتها نقل المعرفة، وإنما أصبحت تخضع لميزان الشهرة والنفوذ، بالإضافة إلى تهيمش الكفاءات وممارسة الرقابة على كتاباتهم بطرق مختلفة كما وقعت له شخصيا، فقال في هذا الشأن: "إن إحدى الصحف أوقفت نشر مقالة لي في منتصفها، وأن أخرى حذفت عبارات وكلمات من مقالة أخرى لي، وأن ثالثة رفضت نشر تعليق على تهجم إحدى المؤسسات ضدي"<sup>(32)</sup>.

ورغم هذه النظرة التشاؤمية والحذرة من الصحافة، تعامل كثيرا مع الصحفيين وأجاب عن أسئلتهم رغم بعضها المخرجة، ولم يفضل صحيفة على أخرى، أو يقدم صحافيا على آخر، فكانت الصحافة تمثل عنده دائما مجالا "لنشر وطرح للأفكار ودخول للعالم بالكلام المكتوب"<sup>(33)</sup>.

لقد تظن الدكتور سعد الله مبكرا لأهمية الصحافة في التعبير عن الآراء، ودورها في تبليغ الأفكار، وقوتها في التأثير على العقول، وكونها أكثر انسجاما مع طبيعته الميالة إلى الفعل أكثر من القول، لذلك بقيّ وفيا للكتابة الصحفية إلى أيامه الأخيرة. وكانت الصحافة وفيه له، فلم ينتشر بعد خبر وفاته فإذا بالأقلام تتزاحم على غير عاداتها في تأبين مؤرخ ومفكر راحل، وتتنافس على إحياء ذكراه!

## الهوامش:

- (1) كان الدكتور سعد الله يمضي مقالاته خلال الفترة المدروسة باسمه الأصلي وهو بلقاسم سعد الله. وأحيانا يضيف إليه القماري، نسبة إلى مسقط رأسه قمار بمنطقة الوادي، الواقعة في الصحراء الجزائرية.
- (2) نشرت جريدة البصائر قائمة الطلبة الناجحين في شهادة التحصيل، عددهم 42 طالبا منهم بلقاسم سعد الله، عبد الله ركيبي، علي كاي، خليفة جنيدي... الخ: أنظر البصائر، العدد 294، 26 ديسمبر 1954.
- (3) أبو القاسم سعد الله. خارج السرب. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 97.
- (4) مصدر سابق، ص 97.
- (5) بلقاسم سعد الله. أمة المجد في الميدان. البصائر، العدد 165، 30 جويلية 1951.
- (6) بلقاسم سعد الله. فلسفة الغرور. البصائر، العدد 170، 17 ديسمبر 1951.
- (7) بلقاسم سعد الله. على هامش البعثة الجزائرية العراقية لجمعية العلماء. البصائر، العدد 212، 9 جانفي 1953؛ احتفال جمعية البعثة الزيتونية بالناجحين. البصائر، العدد 240، 11 سبتمبر 1953؛ شبابنا في ميدان العلوم والمعارف. البصائر، العدد 241، 25 سبتمبر 1953؛ بعثة جمعية العلماء بتونس تكرم الناجحين. البصائر، العدد 247، 13 نوفمبر 1953.
- (8) أبو القاسم سعد الله. مسار قلم. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ج 1، ص 12؛ خارج السرب، ص 99.
- (9) نشر الطالب سعد الله أول رسالة في 25 نوفمبر 1955 (العدد 342)، وآخر رسالة في 30 مارس 1956 (العدد 360).
- (10) مسار قلم، مصدر سابق، ج 1، ص 12.
- (11) أبو القاسم سعد الله. في الجدل الثقافي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 5.
- (12) مراد وزناجي. حديث صريح مع الدكتور أبي القاسم سعد الله. منشورات الحبر، الجزائر، 2008، ص 87-88.
- (13) بلقاسم سعد الله. سعة خضراء. البصائر، العدد 272، 21 ماي 1954، العدد 273، 28 ماي 1954، العدد 274، 11 جوان 1954.
- (14) أبو القاسم سعد الله. أفكار جامعة. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 185-186.
- (15) بلقاسم سعد الله. طريقي. البصائر، العدد 311، 25 مارس 1955.
- (16) خارج السرب، مصدر سابق، ص 98-99.
- (17) بلقاسم سعد الله. من فنون ابن الرومي. العدد 243، 9 أكتوبر 1953؛ العدد 244، 23 أكتوبر 1953؛ العدد 247، 13 نوفمبر 1953.

- (18) مولود عويمر. السجلات الفكرية في الجزائر (1936 - 1956). دار أيدكوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- (19) بلقاسم سعد الله. مع حمار الحكيم. البصائر، العدد 250، 11 ديسمبر 1953.
- (20) بلقاسم سعد الله. ما لهم لا ينطقون بين الإيجاب والسلب. البصائر، العدد 217، 13 فبراير 1953.
- (21) عويمر، السجلات الفكرية، ص 108 - 109.
- (22) إبراهيم الحمداني. شعرنا يمثلنا. البصائر، العدد 264، 26 مارس 1954.
- (23) أبو القاسم سعد الله. منطلقات فكرية. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 45 - 46.
- (24) سعد الله. مسار قلم، ج 1، ص 10.
- (25) سعد الله، منطلقات فكرية، ص 49.
- (26) هذه الحوارات منشورة في كتابيه: قضايا شائكة، وحوارات.
- (27) أبو القاسم سعد الله. قضايا شائكة. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 5 - 6.
- (28) أبو القاسم سعد الله. حوارات. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 7.
- (29) أبو القاسم سعد الله. بحوث في التاريخ العربي الإسلامي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003، ص 106 - 125.
- (30) أبو القاسم سعد الله. دراسات في الأدب الجزائري الحديث. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
- (31) مصدر سابق، ص 377 - 386، ص 419 - 447.
- (32) قضايا شائكة، مصدر سابق، ص 154.
- (33) خارج السرب، مصدر سابق، ص 101.